الأهرام

مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

المصدر: المصور

التاريخ : ١٩٧٥/١٠/٣١

المسيرة الطويلة
من
الهزيمة إلى النصر

خمس سنوات مع السادات

الرجل الذى أحال هزائمنا إلى انتصارات

● كما قلت اكثر من مرة ، ان تاريخ اى شعب من الشعوب سلسلة متصلة الحلقات لاتستطيع ان تفصل اية حلقة عن تلك التى سبقتها او تلك التى تبعتها ، او ستتبعها .

وكما اننا لاتستطيع تاريخ ٦ اكتوبر بصدق وبموضوعية مالم نعد الى ٥ يونيو .

وكما اننا لانستطيع ان نكتب عن ثورة التصحيح فى ١٥ مايو بدون العودة الى ماسبق تلك الثورة .. فانه لكى نتحدث عن الانفتاح العربى والدولى ، الذى حققته ثورة التصحيح لابد وان نعود الى الوراء قليلا لكى نعطى صورة صادقة ـ موضوعية ، وامينة ـ عن تلك الفترة التى سبقت ١٥ مايو .

ولعلنا جميعا لا ننسى ـ وفى مقدمة ميزات شعبنا العظيم انه قوى الذاكرة ـ اننا كنا قبل ١٥ مايو محاصرين او شبه محاصرين عربيا ودوليا .

كانت علاقاتنا بكثير من الدول العربية مجمدة ، او شبه مجمدة رغم تبادل التمثيل الدبلوماسى . كانت تهم الاستعلاء ، والرغبة فى السيطرة ، ونزعة التدخل فى شئون الغير تلاحقنا فى أى بلد عربى . كان الكثيرون لايحبوننا وان تظاهر بعضهم بعكس ذلك ، وكان الكثيرون يخافون منا بسبب وبدون سبب .

●

كنا مثلا فى منتصف عام ١٩٧٠ قد قبلنا مبادرة روجرز لاسباب تتعلق بامننا وسلامتنا ، وعدم قدرتنا على الحصول على السلاح من صديقنا الاوحد ، الاتحاد السوفييتى . وقد اعلن بعض الاخوة العرب الحرب علينا وكانت حروبهم ضارية وشرسة ، وبدون رعاية لاية قيم انسانية او اخلاقية ، او نضالية ، حتى اولئك الذين كنا نعتقد اننا واياهم دائما ـ ومهما كانت الظروف ـ فى خندق واحد ، كانوا اكثر الناس حقدا ، وضراوة فى الحرب .. كان اولئك الذين يوجهون الينا التهم الشنيعة البشعة مثل العمالة والخيانة كل صباح ، قد اسقطوا من حساباتهم والى الابد امكانية العودة الى رفقة السلاح مرة اخرى ،

كانت قيادات حزب البعث فى سورية ، وفى العراق تقود ذلك الهجوم ، وتنفق عليه من اموال الشعب العربى فى سورية والعراق . وكانت بعض المنظمات الفلسطينية ـ كما هى اليوم ـ قد انساقت وراء ذلك الهجوم الضارى ناسية ، او متناسية ان اولى واجباتها كحركة تحرير ان تكون مع الجميع لتحظى بعون الجميع . وكانت المقاومة ذاتها تخوض فى الاردن ـ كما تخوض اليوم فى لبنان ـ حرب الحياة . والمقاومة الفلسطينية التى هى انبل واعظم ظاهرة عربية ارتفعت فوق آلام وجراح ٥ يونيو لم تستطع ان تفرق فى تلك المرحلة ـ مرحلة مابعد قبول مبادرة روجرز ـ بين رفاق الدرب الطويل ، ورفاق المرحلة المؤقتة ، كما انها ـ فى الغالب لم تستطع ان تقيم تماما خصومها واصدقاءها وحلفاءها فكان ماكان من وقوع مجازر ايلول الدامية ، التى انفطر لها قلب كل عربى ، وكانت العلاقات العربية وقتئذ ـ اجمالا ـ تقوم على الحذر وعدم الثقة ، والتاثر بالحساسيات وما اكثرها حينئذ .

وكانت محاولات لم الشمل ، وراب الصدع تفشل في الرباط كما فشلت في الخرطوم .. حتى التنسيق الثنائي بين دولتين كمصر وسـورية والذي كان من المفروض أن يكون نموذجا للعلاقات الثنائية لانه بين دولتين كانت بينهما في الماضي ، ولمدة ثلاث سنوات ، وبضعة اشهر وحدة اندماجية ، هذا التنسيق لم يكن ناجحا لانه كان قائما على الحذر الشديد وعدم الثقة وتربص كل طرف بالطرف الاخر وحتى الدول التي كانت انظمتها السياسية والاجتماعية تكاد تكون واحدة ، كان بينها ـ كما هو الحال وقتئذ بين سورية والعراق ـ حرب ضروس ، سداها الصراع المذهبي ، ولحمتها رغبة كل نظام في القفز على النظام الاخر .

●

وفيما يتعلق بالعلاقات الدولية الاخرى لم ننجح في ارضاء الشرق كما لم ننجح في ارضـاء الغرب .

وكان الغرب ، يبتعد عنا ، ان لم نقل يحاربنـا لاننا في رايه قد وقعنا في شرك الشرق ، ولم نعد بقادرين على الفكاك من سيطرته ، كما انه ـ على حد ماروى بعض كتابه ومعلقيه ـ قد فقد الامل فينا تماما ، او على الاقل تاكد له اننا منحازون ضده ، ولن نتهـم بالمبالغة اذا ماقلنا اننا قد فشلنا حتى في ان « نحيد تلك الدول التي لا علاقة لها بجوهر الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، واننا لم نستطع أن نثير فيها عـلى الاقل الرغبة في الحفاظ على مصالحها عندنا .

لم نستطع مثلا ان نتقدم شبرا واحدا فيما يتعلق بعلاقاتنا بدول غرب اوروبا او بعض دول غرب اوروبا وقد انتابنا ـ في بعض الاوقات ـ غرورجعلنا نتصور اننا قادرون على اجبار بعض الدول الاوربية والامريكية على ان تجثو تحت اقدامنا تطلب منا العفو والمغفرة .

وقد تصور البعض اننا لكثرة ماارتكبناه من اخطـاء فيما يتعلق بعلاقاتنا الدولية ، اننا كنا نسير على مخطط مدروس معلوم وواضح هدفه هو اغضاب الكل لنرضى البعض او على الاقل لنرضى كبرياءنا وغرورنا . ولعله من قبيل النقد ، والنقد الذاتي ـ بصفة خاصة ـ ان نقول بكل الامانة التاريخية أن اعلامنا قد لعب دورا هاما وخطيرا في تاليب بعض الدول العربية ضدنا ، كما انه قد لعب ـ في نفس الوقت ـ دورا لايقل خطورة عن ذلك الدور في اقامة حصار دولي حولنا

وعلى سبيل المثال لا الحصر ـ كما نقول نحن رجال القانون ـ نذكر انه فى مرحلة من المراحل التى سبقت ١٥ مايو ، كانت تجرى محاولات عديدة لاعادة المياه الى مجاريها بيننا وبين الجزائر ، وللجزائر دورها الخطير والبارز فى العالم العربى ، وفى العالم الثالث ، وللجزائر رصيدها الثورى الذى لايستطيع احد ان ينكره عليها ، وللجزائر قيادتها الوطنية الصلبه التى هى بلا جدال وبلا اية مبالغة من جانبنا ذخر للامة العربية ولقضايا التحرير فى العالم كله

وكانت تلك المحاولات تذهب أدراج الرياح بفعل « فاعل اعلامى » وأذكر ان الرئيس هوارى بومدين ـ وارجو ان يعذرنى اذا ما اثرت اليوم ولاول مرة هذه النقطة التى لم استأذنه فيها اذ كان الحديث خاصا للغاية ـ أذكر انه قال وهو يستعرض العلاقات الجزائرية المصرية فى فترة من الفترات « كلمات اقتربت العلاقات من الصفاء ، كانت تظهر فى «احدى» الصحف بعض الانباء المختلقة التى لا أساس لها من الصحة والتى تتعلق دائما بموضوع واحد بغية احداث توتر بين مصر والجزائر » بل انه فى اكثر من مؤتمر عقد فى الجزائر كان البعض « منا » يتحدث فى الموضوعات الحساسة التى لايجب أن نتحدث فيه كمصريين ، لانه من قبيل التدخل فى الشئون الخاصة بدولة شقيقة يجب ان نحرص جميعا على الا نتدخل فى شئونها ، وأذكر مثلا آخر يتعلق بالمملكة العربية السعودية ، والمملكة العربية السعودية وقفت منا منذ النكسة موقفا نبيلا وكريما للغاية .. لم تمن علينا يوما ما بما قدمته ، لم تحاول ولو مرة واحدة أن تؤخر قسط الدعم الذى تقرر فى مؤتمر الخرطوم مهما كان بيننا وبينها من أزمات ، كانت تلك الدولة الشقيقة تتلقى بين حين واخر بعض السهام «الاعلامية» وبعض الاخبار التى لا أساس لها من الصحة ، لكى تعوق تقدم العلاقات الاخوية ، ولكى تحول دون تحقيق الرغبة الشعبية فى ايجاد تقارب بين الحكومتين فى القاهرة والرياض ، والامثلة على ذلك كثيرة وعديدة ، وكلها تؤكد وجود حالة التعمد وسبق الاصرار التى تستهدف ابعاد الشقيقات العربيات عن مصر ، وأمثلة أخرى كثيرة وعديدة على المستوى الدولى ، تؤكد ـ ولو ان الامر ليس بحاجة الى تاكيد ـ ان اعلامنا المصرى قد لعب دورا خطيرا فى افساد علاقاتنا الاخوية بالاشقاء

العرب وفى افسساد علاقاتنا الدولية بكثير من دول العالم ، ولم يكن ذلك الاعلام الموجه الا نتاجا لفكر اعلامى واحد . هو الذى يسيطر على كل نواحى الاعلام يهاجم هذا البلد ، فجاة وبدون مبرر ، وينشر الاخبار المثيرة والملفقة ضد هذا البلد الاخر وكل ذلك من اجل ان تنقطع الجسور الممتدة ، وتتوقف المساعى الحميدة لاعادة المياه الى مجاريها بيننا وبين اى بلد عربى ، او غير عربى مهما كانت حاجتنا ماسة الى التعاون ، مع ذلك البلد .

وللحقيقة وللتاريخ ، نقول انه منذ ان انتخب شعبنا بالاجماع فى ١٦ اكتوبر ١٩٧٠ الرئيس انور السادات لقيادة المسيرة الوطنية والقومية بادر الى وضع قواعد ثابتة ، صريحة وواضحة فى كل مايتعلق بعلاقاتنا مع الاشقاء العرب ومع كل دول العالم ، فلا مجال على الاطلاق ، للتدخل فى اى شان من شئون الاخوة العرب لا بالكلام ، ولا بالعمل ، فكل بلد عربى يسير امسوره وفقا لظروفه وامكانياته وطبقا لرغبات اهله ، وكما اننا لا نسمح لاحد بالتدخل فى شئوننا الداخلية فاننا لا نريد ولا نقبل ان نتدخل فى شئون دولة شقيقة او غير شقيقة ولا مجال على الاطلاق ـ تحت اى ظرف من الظروف ، وباية صورة من الصور ـ للدخول فى معارك جانبية مع احد من الاشقاء العرب على الاطلاق .

فكل الجهود ينبغى ان تخصص للمعركة ، ولا شىء غير المعركة وكل خلاف او اختلاف بين الدول العربية ، وبعضها ينبغى ان يحل فى اطار الحب والود ، والاخوة العربية والرغبة الجادة فى جمع الصف العربى ،ولابد للوصول الى وحدة الصف العربى من القضاء اولاواخيرا على كل الحساسيات الموجودة والحيلولة دون نشوء حساسيات جديدة ، ثم لابد لوحدة الصف العربى ، من العمل الدءوب فى صبر وصمت وحكمة وحب واخاء لجمع كل القلوب حول هدف كبير ضخم هو المعركة وفيما يتعلق بالمعركة لابد من اشراك الشعب العربى كله فى العمل لها ، وبذل كل الامكانيات المادية والمعنوية من اجل الانتصار فى تلك المعركة ، وكل دولة عربية هى التى تقرر القدر الذى تستطيع ان تساهم به فى المعركة حسب ظروفها وامكانياتها دون ضغط من احد ، ودون احراج من احد .

●

وطوال السنوات الخمس الماضية ، زرت فيها كل البلدان العربية ، واستمعت الى كثير من الملوك والرؤساء العرب ، وهم يتحدثون عن الجهود الشاقة المضنية التى بذلها الرئيس محمد انور السادات من اجل وحدة الصف العربى ، ومن اجل اشراك الشعب العربى كله فى المعركة ومن اجل انجاح مؤتمرات القمة العربية ، وأذكر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ان احد الرؤساء العرب ، قد ذكر لى انه التقى قبل المعركة بفترة قصيرة بالرئيس السادات حيث جلس الرئيس السادات لساعات يتحدث عن المعركة القادمة وبعد انتهاء ذلك اللقاء الذى امتد الى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى كان الرئيس العربى يشد على يد الرئيس السادات مؤكدا له ان كل مايملكه شعبه فى خدمة المعركة ، وقد بر ذلك الرئيس العربى بوعده الى ابعد الحدود وكان وشعبه مثالا رائعا فى البذل والعطاء حتى ان شعبه اثر شعب مصر بكل مايحتاج اليه من ضرورات الحياة

●

وحين يزاح الستار عن كثير من الاسرار السياسية الخاصة بتلك الفترة التى سبقت حرب العاشر من رمضان وتلك التى تلتها سوف يعرف شعبنا العربى اى جهد شاق مضن بذله الرئيس محمد أنور السادات من اجل اشراك العرب كل العرب فى المعركة .

وفيما يتعلق بالانفتاح السياسى والدبلوماسى على شعوب العالم كله ، وحكوماته ينبغى ان نقول ان الرئيس السادات قد بذل ايضا جهودا شاقة ومضنية من اجل ان تكسب شعوب العالم ، الى جانبنا : فى البداية اثبت الرئيس السادات لشعوب العالم وحكوماته ان مصر هى صانعة كل قرار يخصها ، لا تستطيع اية قوة فى العالم مهما كبرت ان تجبر مصر على ان تتخذ أى قرار لا تراه مصر فى مصلحتها ، وفى مصلحة شقيقاتها .

وكسبنا ثقتنا بانفسنا فكسبنا ثقة العالم ، نجحنا فى أن يصبح العرب قوة سادسة فى عالم اليوم: نجحنا كما قال الرئيس السادات فى اعتماد سياسه الوفاق العربى والاسلامى فى علاقات مصر العربية والاسلامية دون ما انحياز او انحراف فى محاور سياسة او عقائدية ونبذ الصراعات الاجتماعيه والسياسية ، داخل الوطن العربى من أجل تضامن ووفاق عربى .

نجحنا فى الانتقال من علاقة صداقة خاصة مع الاتحاد السوفييتى وعلاقة عداء خاصة مع الولايات المتحدة الى علاقات متوازية فى صداقتها ومصالحها مع كل منهما دون تمييز او تفريط بين اشتراكية احدهما ، اوراسمالية الاخر .

وكما تعودنا فى تلك الدراسة لابد من الاستئناس باتجاهات الراى العام العالمى ، التى اعتمدنا عليها فى تقييمنا لتلك السنوات الخمس الاولى من حكم الرئيس السادات : قالت صحيفة كومبا الفرنسية ـ فى ٢٥ـ٥ـ٧١ : تحت عنوان السادات يقول لبودجورنى صداقة نعم : لكن تبعية لا .. وتقول : ان القاهرة سوف تعرض على بودجورنى اثناء زيارته المفاجئة لمصر، سياستها الجديدة الواضحة وليس معنى تلك السياسة ان تعرض مصر ، عن الصداقة السوفييتية او عن مساعدات الاتحاد السوفييتى ولكن سوف توضح القاهرة لرئيس الدولة السوفيتية ، ان هذه الصداقة لايمكن ان تصبح شيئا ثابتا ولا ان تشكل نوعا من خضوع القاهرة للاتحاد السوفييتى » ..

وقالت صحيفة الايكونوميست البريطانية وهى تعقب على ماحدث فى ١٥ مايو ١٩٧١ وبعده باربعة ايام : لقد شعرت حكومات عربية كثيرة بالسرور لسقوط رئيس المخابرات شعراوى جمعة وسامى شرف اللذين تشك هذه الحكومات فى انهما يتدخلان فى شئونها ، اما الدولة الوحيدة من دول البلدان العربية التى اعلنت عن نقدها لمصر فهى العراق التى تواصل خصامها القديم بغض النظر عمن يحكم القاهرة .

وقالت صحيفة الاوبزرفر البريطانية ـ فى ٣٠ـ٥ـ٧١ ان الصراع بين رئيس الجمهورية المصرية وبين الوزراء الموالين للسوفييت وانصارهم يرجع سببه المباشر الى موافقة السادات على تشكيل اتحاد فيدرالى مع ليبيا وسورية وقد كان السادات فى هذا النزاع داعيا للوحدة العربية بعكس خصومه

●

وحول التحرك الدبلوماسى الذى قامت به مصر قالت صحيفة جويش اوبزرفر البريطانية فى ٢٨ـ٤ـ٧٢ : وتحت عنوان : السادات يبحث عن اصدقاء جدد . قالت الصحيفة البريطانية تجرى الآن عملية تغيير كبرى لاتجاهات مصر الداخلية والخارجية :

يولى الرئيس السادات وجهه أساسا شطر اوربا الغربية وهو يامل فى التخفيف من حدة اعتماد مصر على الاتحاد السوفييتى ، كما تولى مصر بالذات اهتمامها بفرنسا حيث يامل المصريون والفرنسيون ان تكون العلاقات الفرنسية المصرية ، اقوى مما كانت عليه بكثير وان تفضى تلك السياسة الى تحسين علاقات مصر بجميع دول السوق الاوربية المشتركة أما فى داخل نطاق العالم العربى فان الرئيس السادات قد نجح فى كسب كثير من الاصدقاء وفى التاثير على الشعوب العربية وقد بدات صفحات جديدة فى العلاقات بين القاهرة وكثير من العواصم العربية

وحول زيارة الرئيس السادات لدول المغرب العربى قالت صحيفة لوموند الفرنسية فى ٨-٥-٧٢ : ان الزيارة الاولى التى قام بها الرئيس انور السادات للجزائر قد نجحت الى حد كبير حيث اعادت الثقة بين الدولتين اللتين طالما نشب بينهما الخلاف وسوء التفاهم كما ان زيارة الرئيس السادات لتونس حققت اهدافا كبيرة ولذلك فان زيارة الرئيس السادات لتونس تعتبر علامة واضحة على التقارب بين تونس والقاهرة ذلك التقارب الذى تدعم منذ حوالى عامين

وتقول صحيفة لوموند مرة اخرى فى ١١-٩-٧٣ وتحت عنوان الرئيس السادات يقوم بدور الحكم فى العالم العربى : يواصل الرئيس السادات سياسته الخارجية الجديدة الخاصة بتحقيق الوفاق مع جميع نظم الحكم العربية فمنذ حوالى خمسة عشر يوما والمراقبون يلهثون وراء متابعة وتحليل اللقاءات المتوالية التى عقدها الرئيس المصرى مع الملك فيصل وامير قطر والكويت والرئيس الليبى وعدد كبير من شخصيات العالم الثالث التى حضرت مؤتمر عدم الانحياز فى الجزائر : لقد عادت القاهرة اخيرا ومرة اخرى ، الى الظهور كقلب للعالم العربى ..

صبرى أبو المجد